جامعة الجزائر 2

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم التاريخ

مجلة الدراسات التاريخية

مـــجلة دوريـــة مـــحكـــمة

العـــدد الرابـــع عشـــر 14

– السنة: 1433هـ/2012م

الفهرس العدد

كلمة العدد.....08

التاريخ القديم

د. محمد الحبيب بشاري

التوسعات الرومانية وانعكاساتها على الزراعة المغاربية.....13

التاريخ الوسيط

أ. موسى هواري

استخدام الحيوانات في الزراعة ببلاد المغرب خلال الفترة الإسلامية.....37

د ة. نشيدة رافعي

ذِكر وصف ومحتوى كتاب "أخبار ملوك بني عبيد" لابن حمّاد الصّنهاجي.....51

د. رشيد تومي

الحوض الغربي للبحر المتوسط في عهد روجر الثاني (1101- 1154م).....67

د. نور الدين غرداوي

كتب الفتاوى مصدراً لكتابة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والثقافي للمغرب الأوسط.....97

أة/ زكية كربال

حركة التنصير بإمارة كييف.....123

د. توفيق مزاري

حركة الرباط الساحلي والنشاط البحري في عهد الأغالبة.....139

التاريخ الحديث

يوسف أمير

إسهام الدايات في وقف المساجد بمدينة الجزائر (1671-1830م).....165

أة. مهدية طيبي

نموذج من العائلة الأندلسية في مدينة الجزائر في الفترة العثمانية القرنين (17-18م).....179

أة. يامنة بحيري

الموروث الحضاري الأندلسي في شرشال.....197

أة. ليلى غويني

التواصل الثقافي للرّحّالة الجزائريين مع العلماء المغاربة في العصر الحديث.....213

د. عبد القادر مولاي

الصراع العثماني الأوربي خلال القرن 19م.....233

التاريخ المعاصر

أد. أبو القاسم سعد الله

سليمان باشا الباروني والجزائر.....255

د. محمد لحسن زغيدي

بيان أول نوفمبر 1954 وأبعاده.....271

أ.د. منصف بكاي

دور الجزائر ما بعد الاستقلال في تحرير إفريقيا ومقومات دبلوماسيتها الإفريقية.....311

د. بشير سعدوني
الصحراء الجزائرية بين رغبة الفرنسيين في الاحتفاظ بها وإصرار الجزائريين على عدم التنازل عنها.....343
د.عبد الرحمان أولاد سيدي الشيخ
ثورة مايس العراقية بين اجتثاث فكرها العروبي وساسة بريطانيا المتصهينين...359
أة. سعاد مصطفاوي
دور الحضارة العربية الإسلامية في تطوير الحركة العلمية في غرب إفريقيا.....375
ملحق المجلة 391

سليمان باشا الباروني والجزائر

أد. أبو القاسم سعد الله
قسم التاريخ جامعة الجزائر 2

عاش سليمان باشا الباروني عصره المليء بالأحداث الجسام ابتداء من فاتح القرن العشرين إلى وفاته سنة 1940. وأهم الأحداث هي احتلال إيطاليا لبلاده ليبيا ومقاومته لهذا الاحتلال ودخوله البرلمان العثماني ممثلا عن ليبيا عندما كانت ما تزال تحت مسؤولية الدولة العثمانية. ومشاركته في الحرب العالمية الأولى حليفا لألمانيا والدولة العثمانية، وما قام به خلالها من مغامرات تدل على شجاعته وصدق إيمانه في الدفاع عن الإسلام. ولجوؤه إلى العراق وتكليفه بخطة إصلاحية في مسقط وعمان... وفي خضم هذه الأحداث الكبيرة لم ينس الكفاح من أجل استقلال ليبيا ولا علاقته بالجزائريين، وخاصة أهل ميزاب.

- الإدارة الفرنسية في ميزاب:

كانت الإدارة الفرنسية الأهلية في الجزائر كلها، ومنها ميزاب، بأيدي ما يسمى بالمكتب العربي، وهو جهاز إداري لجمع المعلومات وتصريف الأمور وتنفيذ القوانين الفرنسية الخاصة بالاستعمار وقمع الاضطرابات. وهو في معظم مظاهره يقوم مقام البلدية اليوم. وقد جرت العادة أن يترأس هذا الجهاز ضابط فرنسي خبير بشؤون البلاد وعادات الأهالي، ويساعده في مهمته ترجمان وقاض ومحاسب وشاوش... وحراس. ويقع المكتب داخل أو قرب ثكنة عسكرية تشرف على أمن البلدة أو المدينة.كما أن على الضابط المسؤول أن يكون عارفا بلغة الأهالي (اللغة العربية الفصحى أو الدارجة، مضافا إليها أحيانا بعض الألسنة المحلية)، وعليه أيضا أن يكون دارسا لطوائف الناس وإمكاناتهم التجارية والاقتصادية، وخلافاتهم المذهبية وانتماءاتهم الصوفية ليستثمرها وقت الحاجة. وكان وادي ميزاب في نظر الفرنسيين مركزا هاما في طريق القوافل الصحراوية بين الشمال

والجنوب لتعاطي التجارة في أسواق نافقة في اتجاه الشمال نحو المدن الجزائرية واتجاه الجنوب نحو غدامس وغات وتنبكتو. لذلك اعترف الفرنسيون بالجاليات الميزابية المنتشرة في المدن الشمالية الكبيرة كالجزائر وقسنطينة حيث كانوا يؤلفون نقابات متخصصة في صنع وبيع مواد غذائية معينة باتفاق مع السلطات العثمانية سابقا والفرنسية لاحقا.

ولعل أهم من ذلك كله في نظر بني ميزاب هو أن الفرنسيين اعترفوا بخصوصية المذهب الإباضي، وسمحوا لأهله بممارسة شعائرهم ومحاكمهم طبقا لهذا المذهب، وبتأسيس الكتاتيب القرآنية والمساجد في ميزاب وفي المدن التي تضم جاليات منهم. وذلك يعني اعتراف السلطة الفرنسية بالفقه الإباضي ومرجعيته الأصولية. وكان الشيخ محمد بن يوسف اطفيش (1818-1914) هو العلم المشار إليه بالبنان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، كما أن شرحه كتاب النيل وشفاء العليل أصبح هو المرجع الفقهي لهذا المذهب كما كان الموطأ بالنسبة للمذهب المالكي. ومهما كانت خلفيات الفرنسيين من إحداث هذا "التوازن المذهبي" في الجزائر فإنهم كانوا يأملون أن يستفيدوا منه وقت الحاجة.

وقد تخصص بعض المستشرقين في الدراسات الاباضية وتقاليد بني ميزاب، وكان إيميل ماسكري (1843-1894) من المبكرين في دراسة المدن الميزابية والأحوال الاجتماعية والعمرانية فيها (إضافة إلى مدن منطقتي الأوراس والقبائل). ومنهم في هذا العهد أدولف موتلانسكي (1854-1907) الذي تولى الشؤون الإدارية في ميزاب مما فتح له شهية الدراسات الفقهية والدينية عموما انطلاقا من المذهب الإباضي. وفي هذا النطاق نشر موتلانسكي مدونة ابن غانم وأعمالا أخرى في الفترة التي كان فيها سليمان الباروني تلميذا في معهد الشيخ اطفيش.

- دراسة الباروني في معهد أطفيش:

بتوجيه من والده (عبد الله الباروني) درس سليمان الباروني في معهد الشيخ القطب محمد بن يوسف أطفيش في بني يزقن (يسقن). أثناء دراسته تأثر بالبيئة المحلية والعامة بما فيها من ناس جديين وطبيعة صحراوية متقشفة وتقاليد اجتماعية تميل إلى الخشونة والصرامة. ولا ندري ما الذي جعله أو جعل والده يختار له وادي بني مزاب (أو الشبكة كما تعرف في التاريخ السياسي). هل هو الابتعاد عن الإدارة العثمانية التي كانت يدها تمتد إلى الجبل الغربي أو قبيلة نفوسة، وكانت ربما تعامل أهل نفوسة معاملة خاصة عرقيا ومذهبيا. أما بنو ميزاب فمعترف لهم بـ"أحوالهم الشخصية" الخاصة وبحقهم في الاحتفاظ بتقاليدهم التاريخية تحت الإدارة الفرنسية، وكانوا بحكم المنافسة بين الدولتين، يستطيعون أن يطالبوا بحقوق منصوص عليها في اتفاق بينهم وبين الفرنسيين غير أن هؤلاء افتكوها منهم تحت شعار توحيد البلاد (الجزائر) التي تعتبرها فرنسا أقاليم فرنسية.

لم يكن الشيخ اطفيش مرجعا فقط في المذهب الإباضي وإنما كان أيضا مرجعا في الشؤون السياسية التي تهم فرنسا وبني ميزاب. لذلك كان الفرنسيون يستشيرون الشيخ أطفيش في الأمور الخاصة بالمنطقة والمذهب والتقاليد،ويسمحون له بالحج وزيارة بعض أصدقائه، وبقبول الهدايا والأوسمة من الدول الأجنبية. فقد نال في هذه الأثناء أوسمة رسمية من الفرنسيين ومن سلطان بني عثمان ومن حكومة تونس تقديرا لعلمه ومكانته[1].ولا ندري مدى تأثر الباروني بشيخه في ممارسة السياسة والجمع بين العلم وخدمة الأمة الإسلامية. فقد أنشأ الباروني عدة مشاريع تحسب في ميزان الزعامة والتمهيد لصعود نجمه في مصر وليبيا والدولة العثمانية كالمطبعة البارونية، وتعاطي التجارة وتأسيس جريدة الأسد الإسلامي، وطبع كتب التراث الإباضي مثل الأزهار الرياضية، ومختصر تاريخ تيهرت،كما قام بطبع نظم جواهر الاكليل للشيخ خليفة بن حسن عن مختصر الشيخ خليل في الفقه المالكي[2].

- الباروني وسياسة الدولتين العثمانية والفرنسية في المغرب العربي:

لم تكن العلاقات بين الدولتين العثمانية والفرنسية قد توترت إلى الحد الذي تلغي فيه زيارة الباروني للجزائر، وإنما حاولت كل منهما توظيف الزيارة لصالحها بالتأثير على الباروني بجعله يحس أنه في الجزائر كان بين أهله وإخوانه وأن فرنسا صديقة له كما هي صديقة للدولة العثمانية. وكان لسان حالها يقول للباروني عليك الاعتماد على فرنسا عند الحاجة لأنها ذات حدود مشتركة مع ليبيا العثمانية، وإذا واجهتك ضغوط محلية أو دولية فبإمكانك الرجوع إلى فرنسا والدخول تحت حمايتها. ومن أجل بناء هذه الفكرة في ذهنه مهدت له الطريق للاتصال بأبناء ميزاب في مختلف المدن الجزائرية.

لذلك نجده قد أجرى اتصالات مكثفة مع الحاج عمر العنق وإبراهيم امتياز وإبراهيم بن عيسي أبي اليقظان... وقد كان الأخير على رأس البعثة التعليمية الميزابية في تونس. وسنلاحظ أن الباروني قد خص أبا اليقظان بكثير من أسراره ورسائل المكاشفة والشعر الملغز الذي يشير فيه إلى أشياء لا تذكر في النثر إلا صريحة. فكان الباروني شاهدا على نهضة الجزائر (نهضة بالمفهوم المحلي) معتبرا الجزائر وطنه الثاني.

- جريدة الفاروق وزيارة الباروني الثانية للجزائر:

عبرت جريدة الفاروق التي كان يديرها الصحفي عمر بن قدور[3] من الجزائر عن طقوس الاستقبال الاستثنائية التي حظى بها الباروني،أثناء الزيارة الرسمية. وبناء عليها قد سهل له الفرنسيون تحقيق أهدافه. وكان المعلن منها هو زيارة ضريح شيخه القطب أطفيش الذي توفي حديثا (1914). وبهذا الصدد سمح الفرنسيون للموظفين وأعيان بني ميزاب وعلمائهم بالتوقف عن العمل واستقباله ومرافقته بشكل احتفالي ضخم. وكانت مهمة توفير الأمن والراحة له أثناء السفر البعيد قد تولتها السلطات الفرنسية.والغالب على الظن أن وصف الرحلة كان

بقلم عمر بن قدور ولكن السلطات الفرنسية هي التي وافقت عليه. وهو وصف يدل على أنها وافقت على الزيارة، لأنها، كما قال أبو اليقظان، كانت تخشى اتصال الباروني بأهل البلاد، وخاصة أعيانهم.

العنوان الذي اختارته جريدة الفاروق لرحلة الباروني هو "الباروني في صحراء الجزائر"، وأضافت أنه سافر من العاصمة إلى بني يزقن في شهر أبريل وهو من شهور الربيع الجميلة في المناطق الصحراوية. وعنوان الفاروق يشبه العناوين التي تتبجح بها جريدة المبشر الرسمية[4] عندما تصف أنشطة السلطة الفرنسية نحو الأهالي. قالت الفاروق إن الإدارة الفرنسية أعطت إجازة للقضاة والعلماء، وأن بعضهم قد ألقى خطبا ترحيبية بين يدي الباروني، كما رد هو بخطب وكلمات شكر. ثم وصل موكبه إلى غرداية حيث مقر الإدارة الفرنسية. ولم يتوان الباروني عن شكر فرنسا التي وفرت له شروط الراحة والوصول إلى بلدة شيخه حيث قضى ردحا من الزمن تلميذا عليه.

وفي مقر الحاكم الفرنسي استقبل رسميا كما استقبل من العلماء والموظفين، ثم زار ضريح شيخه القطب اطفيش. وكان الباروني مرفقا بشيوخ الناحية الذين منهم الحاج عمر العنق[5]. وردا على هذا الاستقبال الحافل شكر الباروني أصحابه المعتزين به، كما شكر السلطة الفرنسية التي قال إنها قامت على "دعائم الحرية". وزاد في المجاملة حين قال إنها تحب كل ما يسعد رعاياها المسلمين (يقصد الجزائريين ومنهم بنو ميزاب).

ومن جهة أخرى خاطب مستقبليه بقوله اعملوا على ما يرضي فرنسا وابتعدوا عما يغضبها. وهو يقصد بذلك عدم مقاومتها أو إثارة الشغب ضدها. والباروني في هذا الخطاب يذكرنا بنصائح الشيخ محمد عبده للجزائريين قبله بعقد من الزمان حين ألقى على مسامعهم دروسا وخطبا. وربما يلتمس الباحث عذرا للباروني لأن بلاده كانت في حالة حرب ضد إيطاليا التي احتلت ليبيا سنة 1911، وكان في

حاجة إلى دعم فرنسا التي لم يكن يسرها هذا الجار الطماع فيما بقي من شمال إفريقيا ولوكان مثلها جارا لاتينيا.

وربما لهذه اللهجة سمحت فرنسا للجزائريين في هذه المناسبة بالتعبير عن مشاعرهم الداعمة للدولة العثمانية وحركة الجامعة الإسلامية لأن فرنسا كانت في منافسة حادة مع إيطاليا حول تونس. ومن الجدير بالذكر أن زيارة الباروني المنوه بها حدثت بعد الإطاحة بالسلطان عبد الحميد الثاني بحوالي خمس سنوات. فالجرح عنده كان ما يزال حيا وكانت لجنة الاتحاد والترقي تعيش ربيعها ومشاكلها أيضا مع من دفعوها إلى الثورة والانقلاب. لذلك فإنه من المستغرب أن يكتب صاحب الفاروق، وهو الذي طالما عبر عن ولائه للدولة العثمانية والسلطان المخلوع- بموالاة أحد المنقلبين ودعمه وهو سليمان الباروني الذي عاش سنوات الدراسة في الجزائر فرارا ربما من حكم السلطان "الأحمر"[6] وتماهيا مع الدعاية الماسونية-الصهيونية التي ساندت لجنة الاتحاد والترقي ضده.

وقد نفهم من خطاب الباروني الإعلامي المكشوف أنه جاء إلى الجزائر لاجئا سياسيا غير أن الفرنسيين سيكشفون له عن وجههم الحقيقي ويعاملونه معاملة المنبوذ حين كان يبحث عن دولة تمنحه حق اللجوء. وقد أثبت الباروني أنه بقي وفيا للدولة العثمانية قبل وبعد الحرب، مما جعل دول الحلفاء يمتنعون عن إعطائه حق اللجوء (بريطانيا، فرنسا، إيطاليا..)،وسدت إيطاليا في وجهه أبواب بلاده (ليبيا). والغريب أن مصطفى أتاتورك رفضه أيضا لأن الباروني عارض التغيير الذي أحدثه في نظام الدولة العثمانية. لقد رفض الفرنسيون السماح له باللجوء إلى تونس أو الجزائر بعد الحرب، كما طلب ذلك وألح. وقد أصر وزير خارجية فرنسا عندئذ، بون مارشي على أن الباروني لن يدخل فرنسا ولو في المنام[7].

- زيارة الباروني الثالثة للجزائر:

ورغم ما حدث خلال الحرب فالباروني عاد إلى الجزائر سنة 1925. وفي هذه الزيارة التي كانت تبدو علمية وتاريخية توجه إلى أجزاء مختلفة من القطر الجزائري،

منها مدينة تاهرت العاصمة الرستمية الإباضية. وفي طريقه إليها سجل انطباعاته شعرا ونثرا، وترك لنا رصيدا أدبيا غنيا، ثم ثروة وصفية وإنسانية للمدن والطرق والمعالم التي مر بها. وشاهد خلال ذلك مدنا خلابة كالقليعة عاصمة العلم والتجارة والتصوف، والبليدة مدينة الورود، وجبال زكار الخضراء الشاهقة ، وقالمة الساحرة بمناظرها ومياهها المعدنية الدافقة. ففي القليعة تناول الغداء عند أحد الأعيان الأعضاء في مجلس ولاية العاصمة.(من عائلة الصوفي ابن مبارك) ولا شك أن هذا "العين" تحرك بإيعاز من فرنسا لأنه من رجالها الرسميين[8].

وفي هذه المناسبة قال الباروني شعرا:

بين الجبـــــــــال وبين حوض البحر أبهـــى منظـــر
طود بـــــه قصـــــــر القليعة ذو المنـــاخ الأخضـــر

ولا نملك الآن معلومات دقيقة عن خط سيره ولكننا نعرف أنه شاهد أيضا تلمسان.ثم رجع إلى مدينة الجزائر عن طريق قسنطينة كبرى مدن الشرق عبر قالمة. وفي هذه المدينة ألح عليه أهلها -كما قال- أن يزور حماماتها المعدنية الشهيرة. وقد عبر عن إعجابه بقوله إنها "منابع كثيرة تحيط بها جبال شاهقة ذات غابات شجر لها منظر عجيب يقصده الافرنج من أوروبا". ويبدو أنه زار تلك الناحية في آخر فصل الشتاء لأنه أضاف أن "الثلج ما يزال جامدا" على رؤوس الجبال. وقد وصف الحمامات نفسها بالنظافة والنظام. ورغم البرد فقد أخبر الباروني أنه اجتمع مع ضيوفه حول الحمامات "لتناول الطعام وشرب الشاي" بينما كان بخار الحمامات حولهم يملأ الفضاء.

ومن قالمة سافر ليلا آخذا طرقا معبدة، وخلال سيره تَذكَّر العربة التي يركبها في جبل نفوسة، فقال شعرا رقيقا يفيض حنينا وشوقا إلى مسقط الرأس ومراتع الصبا:

تدفق ماء معدني من الصخـــر يذكرني مما تخـــــــلد في الفكـــــر
سبحنا وروَّحنا النفوس سويعة وعدنـــا وجنح الليل منسدل الستـــر
تحف بنا تلك الجبال يزينـــــها من الثلج هامات كمنفلــق الفجـــر
وطرق كقضبان اللجين ترصعت بها الروض من صنف الزياتين والسدر(9)

- الجزائر في صحيفة الأسد الإسلامي والمطبعة البارونية:

وبقدر ما كانت صحف الجزائر تهتم بآراء الباروني في مختلف القضايا المعاصرة، ومنها المذهب الإباضي، وتاريخ مسقط، وحالة زنجبار، وتاريخ بني رستم في الجزائر وليبيا، والسياسة العربية والإسلامية في ضوء التطورات التي كانت تمر بها الدولة العثمانية- بقدر ما كان الباروني ينشر ذلك في صحيفته الأسد الإسلامي التي أسسها في مصر. فقد كان ينشر فيها ما يتعلق بأحوال بلاد المغرب ماضيا وحاضرا، وكان أصدقاؤه وأنصاره بنو ميزاب يبثون آراءه في مختلف المنتديات ويسهلون وصول صحيفته إلى القراء في الجزائر على أوسع نطاق. وقد ربط الباروني أيضا علاقات تجارية بينه وبين أهل ميزاب.

أما المطبعة البارونية فقد اهتمت بنشر التراث الإباضي وخاصة آثار الشيخ اطفيش. فنشرت له مجموعة من الكتب التي لا تخرج عن خدمة الدين والمذهب. كما نشرت بعض آثار المذهب المالكي ومنها نظم جواهر الإكليل للشيخ خليفة بن حسن القماري. وكانت المطبوعات البارونية تباع في مكتبة السيد يوسف بن مسعود في قسنطينة. وكان الباروني يتصل بتجار وعلماء منطقة ميزاب الذين عرفهم من قبل. ولكن هذه الحركة العلمية والتجارية تعطلت بسبب الحرب بين الدولة العثمانية وإيطاليا وهي الحرب التي شارك فيها الباروني كما شارك فيها شكيب أرسلان والأمير علي نجل الأمير عبد القادر والأمير عبد القادر (الحفيد) ابن علي.

وعندما أحس الباروني أن الكتب التي نشرها بقيت في مصر ولم توزع كلها وأنه لا يستطيع الرجوع لا إلى مصر ولا إلى الجزائر عرض الموضوع على أصدقائه في الجزائر فاتفقوا على جلب كميات منها (قدرت بـ 15 ألف نسخة) لبيعها باسمه. وكان ابراهيم اطفيش المهاجر من تونس بعد طرد الفرنسيين له نشيطا في مصر من أجل استقلال مسقط وعمان، فقام بتنفيذ الصفقة وذلك بتجليد الكتب وإرسالها إلى الجزائر. وعند وصولها بطرق مختلفة كان ابراهيم امتياز هو الذي يقوم بتوزيعها وبيعها رغم أن فرنسا كانت تراقب حركة الكتب بين مصر والجزائر وتخشى من تأثيرها على استقرار السكان. ويذكر أبو اليقظان أن ثلاثة صناديق منها قد وصلت إلى الجزائر[10].

قلنا إن الباروني لم يكن من المتفرجين على ما يحدث في العالم العربي بل كان مشاركا وناقدا وخاصة فيما يحدث في بلاد المغرب. فعندما رأى بعض العلماء الجزائريين ينتسبون إلى قبائلهم لم يرفض ذلك كما لم يرفض انتساب الشخص إلى الجهة أو البلدة. وكان يعلق بذلك على ما نشرته جريدة البصائر حول انتساب بعض العلماء إلى قبائلهم.

ولعل الذي أثار الموضوع هو الشيخ سعيد الزاهري أحد كتاب جريدة البصائر آنذاك ومن أنصار التيار الإصلاحي الوطني. فعلق الباروني على الموضوع قائلا إن الواحد من العلماء ينهي اسمه بكلمة الزواوي أو الصنهاجي، وهذا لا غضاضة فيه فينظره فهو كالانتساب إلى نفوسة وزواوة وزناتة، وهلم جرا، وليس في ذلك شعوبية، كما أنه لا شعوبية في النسب إلى بني هلال وبني راشد وبني حفص، إلخ. أما الغضاضة عنده فهي الانتساب إلى العنصر كالعربي والبربري-المزيغي[11]. فالواجب، في نظره، على أهل شمال افريقيا أن ينتسبوا إلى الإسلام فيقول الواحد منهم إنه مسلم جزائري ومسلم طرابلسي ومسلم مراكشي... دون ذكر كلمة عربي أو بربري.

كما حبذ الباروني انضمام علماء الإباضية من بني ميزاب إلى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين[12]. ورأى أن في إضافة كلمة المسلمين إلى اسم الجمعية هو عين الصواب، وعبر عن سروره بإضافة كلمة الإسلامي للمؤتمر الإسلامي الجزائري الذي انعقد سنة 1936 بالعاصمة لأن ذلك هو الاستعمال الصحيح في نظره إذ ليس في العنوانين كلمة عربية أو عربي. ولبعضهم أن يتهم الباروني نفسه بالشعوبية لانتصاره لهذا التفسير الذي يدعم وصف الإسلامي ويرفض وصف العربي. ترى ما ذا عساه يقول عندما يرى القوم اليوم يفضلون وصف الديموقراطي والليبرالي على وصف الإسلامي والعربي؟

ولكي يكون على اطلاع بما يجري في الجزائر، وهو إما في مسقط وإما في العراق، طلب من أصدقائه الميزابيين أن يدفعوا عنه الاشتراك في جريدة البصائر التي كان يتابع من خلالها ومن خلال صحف أبي اليقظان أخبار الجزائر. وكان يتكلم عن البصائر باعتبارها جريدة جمعية العلماء المركزية التي صدرت تارة في العاصمة بتحرير الشيخ الطيب العقبي وتارة في قسنطينة بتحرير الشيخ مبارك الميلي الهلالي[13].

وقد أخبر أصدقاءه أنه تأثر من الشقاق الذي حدث بين جمعية العلماء وبعض الأحزاب وهو فيما يبدو يقصد حزب الشعب الذي انتقد الجمعية على مشاركتها في المؤتمر الإسلامي وتحالفها مع الشيوعيين والاندماجيين، وهو المؤتمر الذي قاطعه الحزب.

- في مواجهة الفتن والدسائس:

جرت في الجزائر فتن عديدة تمس بني ميزاب مثل أحداث مدينة قسنطينة في الخامس من شهر أوت (آب) سنة 1936 والتي سماها فتنة. وهي تتمثل بالأساس في مقاطعة التجار اليهود بالمدينة، فلم تحن نهاية العام حتى حول هؤلاء "الفتنة" إلى

مقاطعة تجار بني ميزاب. فكتب الباروني إلى صديقه إبراهيم امتياز بأنه كان يتوقع حدوث ذلك. وطلب منه الإسراع بتدارك الوضع ووقف مكائد اليهود التي لا تحصى، حسب تعبيره. والواجب في رأيه على عقلاء وعلماء الأمة، من العرب وغيرهم، تلافي الأمر. مقترحا أن تكون مقاطعة التجار اليهود تدريجية لأن التجارة قديمة بين الفريقين (بنو ميزاب واليهود). وعندما يتخلص الميزابيون من سيطرة التجار اليهود يتجهون إلى التجارة مع فرنسا مباشرة دون واسطة يهود الجزائر[14]...

- الباروني والمذهب الإباضي:

وكان الباروني حذرا لا يريد المساس بالعلاقة المذهبية بسوء، لأنه يدرك أن علاقة الميزابيين مع أهل السنة المالكية كانت حجر الزاوية في معاملاتهم اليومية. ومن جهة أخرى كان يخبرهم بأحواله في مسقط لكي يكونوا في صورة الأحداث. فهو يخبره بتكليف الإمام له بإصلاح السلطنة، وبوفاة أحد القضاة البارزين، وهو الشيخ عامر بن خميس الذي "ارتجت عمان" لفقده، ووصفه بأنه رابع أربعة من أكبر العلماء في عمان فقدهم الإسلام والعمل بالعلم في هذه السنة (1346).

كما كتب لأبي ليقظان معبرا عن غبطته بالإصلاحات الجارية في ميزاب، خاصة تلك المتعلقة بالولاية والبراءة التي اعتبرها من الأمور التي لا تدوم رابطة بدونها في ميزاب، قائلا إنه لا نظير لها في الدنيا وإنها ميزة تميز بها المذهب الإباضي النقي. وقد نصح بالعض عليها بالنواجذ في المدن والقرى، لأنها جامعة الشمل، وعليهم ألا يوهنوها "بمسائل السياسة والوطن العمومي فتضيع الميزة والشخصية البارزة لميزاب والميزابيين". والتمسك بهذه الميزة لا ينافي في نظره اتحاد أبناء القطر كله[15].

وقد تدخل في صميم السياسة الفرنسية نحو بني ميزاب، وهي مسألة التجنيد الإجباري[16]. فقد كان بنو ميزاب يطالبون بإعفاء شبابهم من التجنيد لأن اتفاقهم مع الفرنسيين سنة 1853 يعفيهم منه. وفي نظر الباروني أن الحاكم الفرنسي الجديد (موريس فيوليت)[17] كان متفهما لمطلبهم. فقد كتب الباروني إلى الحاج عمر العنق أنه مسرور بتقدم تفاهمهم مع السلطات الفرنسية حول مسألة التجنيد، وبـ "تساهل الدولة معكم في مسألة التجنيد بهمة الوالي الجديد الحر، فهنيئا لكم بذلك" (1345)[18].

وعبر الباروني لأبي اليقظان أيضا عن تألمه من عواقب مسألة الأذان التي رآها دسيسة لتمزيق شمل أبناء الأمة عند تأسيس جمعية العلماء (1931)، ومن رأيه أن التحزب للمسألة قد خطط لتمزيق الشمل وتحطيم ما بقي لميزاب من الامتياز الحافظ للدين الحامي للبلاد[19]... كما كان له رأي فيما دار من نقاش بين بعض متعلمي ميزاب حول التليفون في الجرائد وغيرها وصل حد التشاتم. ورغم أنه نصح بالكف عن نشر مثل هذه الآراء فإن المهاترة قد استمرت على مستوى العزابة أيضا.

ويضيف الباروني أن ميزاب تشهد نهضة حديثة، ودليلها وجود الصحف والمطبعة وغيرها من مظاهر الحياة العصرية. وكان يتتبع ذلك فيما يقوم به الأدباء والمتعلمون والتجار. ومن مطالبه الاهتمام بالجامع التاريخي في وارجلان وآثار السلف التي سماها مدافن الأجداد والأعلام. ويبدو أنه كان مهتما بالآثار، كما عبر عن ذلك فيما سماه أطلال تاهرت وغيرها من المدن الرستمية.

وكان أصدقاؤه في ميزاب يمدحونه شعرا فيرد عليهم بمثله. وكانت بعض مراسلاته معهم ملغزة أو مشفرة نشر بعضها في جرائد أبي اليقظان، سيما جريدة الأمة. فقد مدحه أبو اليقظان ذات مرة في جريدة وادي ميزاب بقصيدة مطلعها:

خفقت بنود العز والسلطان وعلت جنود سيادة بعُمان

وهي قصيدة قال عنها الباروني إنها قرئت وأطربت السامعين، ولكنه أوصاه بالاعتدال في المدح حذرا ربما من إساءة فهمها سياسيا. وربما كان يخشى أن المبالغة في مدحه تجعله هدفا لاتهامات عديدة.

وكان يرد على بعض الجرائد العمانية، مثل الفلق،بنشر آرائه على صفحات جرائد الجزائر كالنور لأبي اليقظان والحياة للشيخ باسعيد عدون[20].

- الباروني والفقر:

وأخبر الباروني أنه نشر تعليقا عن حقوق الطرابلسيين الذين سلمتهم فرنسا إلى إيطاليا في تونس، وأنه راجع الحلفاء لكي يسمحوا له بالالتحاق بعائلته في طرابلس والعلاج في تونس أو الجزائر. وقد توسل لفرنسا بقناصلها وبشخصياتها المتنفذة في المشرق. وطلب من أصدقائه الميزابيين التوسط من أجله لدى الفرنسيين ليسمحوا له بدخول تونس أو الجزائر للاستقرار بأهله، ووعدهم -إذا فعلوا- بتقديم "ضمانة معتبرة"[21].

أخيرا حصل على التابعية العراقية (الجنسية) بعد إقامة دامت خمس سنوات. ومع ذلك فقد فتحت عليه السماء فكانت مدرارا، وشعر بالأمل ونبض الحياة من جديد:

تأمل يا أبا اليقظان وانظر تجد ذا البؤس في جنب الملوك
فليس المال للإجلال كاف ويكفي للعلا حسنُ السلوك
وسبحان الذي خلق البرايا على حِكَمٍ تجِلُّ عن الشكوك

وأضاف إلى هذا أبياتا يمدح فيها المال الذي يقود إلى سلم الجاه والمجد والسؤدد، متسائلا كيف تجتمع الفضيلة والبؤس في شخص واحد، منها البيت التالي:

إن في الفقر شرورا ليس تُحصيها شِفاه[22]

وبعد الحرب العالمية الأولى وسيطرة الإيطاليين على مقاليد السلطة في بلاده أصبح لاجئا في بلدين لا ثالث لهما هما مسقط والعراق. وكان في حاجة إلى المال ليعول به عائلته البعيدة عنه[23] وولده المريض مرضا مزمنا وعلاج صحته بعد أن داهمه المرض ومنعه الطبيب من تناول أطعمة وأشربة كان يتعاطاها بدون قيود. وكان الباروني قد جرب حياة الرفاه الاقتصادي والنيابة في البرلمان وما فيها من امتيازات وتبجيل. وها هو الآن يعيش في فقر مدقع رغم استقبالاته العديدة ومحيطه الاجتماعي الذي يتطلب منه فاخر اللباس والأثاث والطعام والظهور بمظهر العظماء.

- بين أطلال تاهرت:

زار الباروني مدينة تاهرت القديمة ووقف على أطلالها، وهي عاصمة بني رستم حيث حكمت الأسرة الرستمية ابتداء من عبد الرحمن الذي تذهب بعض الروايات إلى أنه فارسي أصبح من موالي العرب. وتاهرت تسمى أيضا عاصمة الأئمة لأن الحاكم فيها كان يلقب بالإمام وليس الخليفة أو السلطان أو الأمير. فكان منظرها يثير العبرة ويدعو إلى التذكر عند الباروني الذي يعرف أن حكم الأئمة كان يمتد منها إلى قبيلته نفوسة. ومن ثمة سماها مدينة الأجداد.

يقع كتاب الأزهار الرياضية الذي خصصه الباروني للدولة الرستمية في ثلاثة أجزاء، ولكن المطبوع المتداول منه هو الجزء الثاني فقط. وهو في الحقيقة -كما قال المصراتي- جزء خاص بتاهرت، يتناول نظمها وأيمتها وأطلالها وتاريخها ومذهب أهلها وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية. ومن فصول الكتاب: تاريخ تأسيس تاهرت، وبعض المدن المنسوبة إليها، والعلماء المنسوبون إليها. كما تحدث فيه عن واقعة نفوسة مع المعتزلة، وعن زواج ابن رستم من قبيلة لواته... دون أن يهمل آراء بعض أهل السنة في حضارة تاهرت[24].

- خاتمة:

للباروني شخصية طموحة رفعت همته إلى المجد السياسي والعسكري، وكان شاعرا وناثرا، يقف على قمة الجبل الغربي معتزا بمذهبه وقبيلته. ويظهر في عينيه ذكاء خارق، وصورته تدل على قصر قامته فعوضها بطربوش عثماني وشعر طويل.

الهوامش :

[1]- عن ذلك انظر كتابنا **تاريخ الجزائر الثقافي** ج 3، ط. عالم المعرفة، بيروت، 2011، ص 264.

[2]- عن كتاب الأزهار انظر لاحقا، وعن **جواهر الإكليل** انظر كتاب **إتحاف القاري** بحياة الشيخ خليفة بن حسن القماري للشيخ محمد الطاهر التليلي، ط.2، تالة، الجزائر، 2010.

[3]- عمر بن قدور تحدثنا عنه في الإسهام الصحفي بداية القرن العشرين. وقبل أن ينشئ صحفا باسمه. وقد اشترك مع باروكان صاحب جريدة **الأخبار** الفرنسية التي أصبحت تنشر ملحقا بالعربية كان ابن قدور هو الذي يحرره ويشرف عليه وكان قد تبنى مذهب الإصلاح الذي دعا إليه الشباب (النخبة) الجزائري. وبعد الحرب العالمية الأولى أنشا ابن قدور بعض الصحف باسمه وأسهم في صحف أخرى. وقيل إنه عذب ونفي إلى الصحراء خلال الحرب العالمية الأولى من قبل الفرنسيين.

[4]- جريدة الحكومة الفرنسية الموجهة إلى الأهالي الجزائريين. وقد ظهرت في نهاية سنة 1847 وكانت تصدر باللغتين، وهي حسب دارسي تاريخ الصحافة العربية ثاني صحيفة بالعربية بعد **الوقائع المصرية**.

[5]- ويظهر أن أبا اليقظان لم يرافق الباروني لأنه كان ما يزال بتونس على رأس البعثة التعليمية الميزابية.

[6]- هكذا كانوا يلقبون السلطان عبد الحميد الثاني لأنه كان في نظرهم دمويا وكثير الجواسيس والعداء للغرب المتغطي بالصهيونية والماسونية.

[7]- أبو اليقظان، **سليمان الباروني باشا**، ج2/ 202.

[8]-عضو المجلس هنا يعني **مجلس الشؤون المالية**، وهو أحد المجالس المعينة من قبل الإدارة لتمثيل الأهالي، ولكن ليس لهم تأثير على سياسة فرنسا بالنسبة إلى شعبهم.

[9]-أبو اليقظان، **الباروني** ج2/ 98، 101. أبو القاسم سعد الله، **بحوث في التاريخ العربي**، ط. دار عالم المعرفة، بيروت، 2011، ص 408.

[10]- أبو القاسم سعد الله، "لعنة ميرانت" في **أفكار جامحة**، عالم المعرفة، بيروت،2011، ص 147.

[11]- قال إن النطق المزيغي أصح من المازيغي، أي البربري.

[12]- أنشئت سنة 1931 برئاسة عبد الحميد بن باديس ونائبه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي واستمرت إلى سنة 1956. وهدفها استعادة هوية الجزائر العربية والإسلامية بطريق التعليم بالعربية، وهي الهوية التي حاول الاحتلال طمسها.

[13]- أعادت دار الغرب الإسلامي طبع البصائر بعد أن جمعت ما تفرق من أعدادها بصعوبة. بيروت 2004؟

[14]-تعرف بأحداث قسنطينة، وقد بدأت باعتداء أحد اليهود على مقدس إسلامي وهو الجامع العتيق، فثار المسلمون ضد اليهود وتدخلت الشرطة ومات بعض الأفراد، وكادت الأمور تخرج من أيدي الحكومة وأعيان المدينة. وعن مسألة الأذان والمقاطعة وغيرها مما كان فيه بنو ميزاب طرفا انظر أحمد توفيق المدني **حياة كفاح** (مذكرات)،ط. دار البصائر، الجزائر، 2008، ص 311 وهنا وهناك.

[15]- أبو اليقظان، **الباروني** 210/2.

[16]-**التجنيد الإجباري** قانون سنه الفرنسيون عام 1912 وفرضوه على الشباب الجزائري ليحارب معهم تحت الراية الفرنسية، وكانت سحب الحرب العالمية الأولى تتلبد، وشعرت فرنسا بالخطر الألماني وباتساع جبهاتها القتالية. أما قبل ذلك فليس إلا التطوع لأداء الخدمة العسكرية. أما منذ 1912 فقد أصبح الشباب الجزائري مجبرا على التجند، وهذا ما نازعهم فيه بنو ميزاب ودعمهم الباروني في موقفهم.

[17]- تولى موريس فيوليت حكم الجزائر من 1925 إلى 1927، وكان اشتراكي المذهب. وقد استطاع أن يجلب إلى بلاده بعض النخب الجزائرية بسياسته الاندماجية الخطرة التي كانت تبدو سياسة ليبرالية براقة.

[18]- أبو اليقظان، **الباروني** 211/2.

[19]- أبو اليقظان، **الباروني** ج212/2

[20]- صدرت الجريدة الأخيرة باللغتين عام 1933 و لم يظهر منها سوى أعداد.

[21]-لم نفهم من العبارة الأخيرة سوى وعده لهم بعدم التدخل في الشؤون السياسية أو المساهمة في التهدئة التي يطلبونها.

[22]- أبو اليقظان، **الباروني**، ج 102/2.

[23]- كانت عائلته مقيمة عند أخيه يحي الباروني في طرابلس.

[24]- علي مصطفى المصراتي، **مؤرخون من ليبيا**، ط1، طرابلس، 1977، ص245-261.